مطرانية الروم الأرثوذكس في بيروت

Orthodox Archdiocese of Beirut

الرسالة

(١تيموثاوس ١:١٥-١٧)

يا ولدي تيموثاوسَ صادِقةٌ هي الكلمةُ وجديرةٌ بكُلِّ قَبولٍ. أنَّ المسيحَ يسوعَ إنَّما جاءَ إلى العالَمِ ليُخلِّصَ الخطأةَ الذينَ أوَّلُهم أنا* لكنني لأجلِ هذا رُحِمتُ ليُظهِرَ يسوعُ المسيحُ فيَّ أنا أولاً كلَّ أناةٍ مِثالاً للذينَ سيؤمِنونَ بهِ للحياةِ الأبدية* فلمَلِكِ الدهورِ الذي لا يَعروهُ فسادٌ ولا يُرى اللهُ الحكيمُ وحدَهُ الكرامةُ والمجدُ إلى دهرِ الدهور. آمين.

الإنجيل

(لوقا ١٨:٣٥-٤٣)

في ذلك الزمانِ فيما يسوعُ بالقربِ من أريحا كان أعمى جالساً على الطريقِ يستعطي* فلمَّا سمعَ الجمعَ مجتازاً سأل ما هذا* فأُخبر بأنَّ يسوعَ الناصريَّ عابرٌ* فصرخَ قائلاً يا يسوعُ ابنَ داودَ ارحمني*

الدينونة عند القديس أفرام السرياني

تعلّق المؤمنون بكتابات القديس أفرام الروحية واكتسبوا إرشادات من نصائحه ومشوراته وعظاته. ما يلفت النظر عنده هو ذكر الدينونة وذرف الدموع: «فلنبكِ هنا قليلاً لئلا نبكي هناك مؤبداً»، لا من أجل تعذيب الذات بل من أجل التوبة لبلوغ ملكوت السموات. يحذّر قديسنا الناس من التقاعس لأن مجيء المسيح يكون بغتة كالبرق وفي تلك الساعة يحصدُ كل واحد ما زرعه: «لأن من يزرعُ لجسدِهِ فمِنَ الجسدِ يحصُدُ فساداً. ومن يزرعُ للروحِ فمِنَ الروحِ يحصُدُ حياةً أبديَّةً» (غلا ٦: ٨). لكن لماذا يأتي المسيح؟! يجيب القديس: ليكلّل الذين جاهدوا حسناً والذين أحبّوا الطريق الضيقة الحرجة، ويرحم الرحماء ويُشبع بالخيرات الذين جاعوا وعطشوا من أجله، ولينير مكتومات الظلمة، ويظهر أفكار القلوب. باختصار، المسيح يأتي ليكافئ كل واحد بحسب أعماله.

يتوجّه القديس أفرام إلى الإنسان المؤمن مصوّراً له مجيء ربنا يسوع المسيح الثاني الرهيب فيقول: «فكر يا أخي بما سيظهر في ذلك الحين، مَنْ باستطاعته أن يتكلّم عن هذه الأمور كلّها وأي لسان يجرؤ على ذكرها وأية أُذُن تستطيع احتمال سماعها؟! ذلك حين ينزل ملك الملوك عن عرشه وينحدر إلى جميع المسكونة ليحاسب كُلاً منا مانحاً أجرة صالحة للمستحقين والهلاك الأبدي للخطأة. لأنه هو القاضي العادل الذي لا يحابي الوجوه».

كيف يمكن للإنسان المؤمن أن يتحمَّل ذلك الصوت العظيم وذلك الصراخ الرهيب من أعالي السماء؟ يقول: «ها هو الختن يأتي، ها هو الديّان يقترب، ها هو المَلِك يطل، ها هو قاضي القضاة يحضر، ها هو إله الكل يأتي ليدين الأحياء والأموات». عند سماع ذلك الصوت الرهيب، ستتزعزع أساسات الأرض وأحشاؤها والبحر وكل الأعماق. حينئذٍ سيمتلك الخوف والقلق والدهشة كل إنسان سيصرخ عند سماعه صوت البوق. إن قوات السموات ستتزعزع والملائكة سيتراكضون وسيسرع معهم رؤساء الملائكة والشاروبيم الكثيرو الأعين والسارافيم ذوو الستة الأجنحة وهم يهتفون بقوة قائلين: «قدوس، قدوس، قدوس، رب الصباؤوت الكائن والذي

العدد ٢٠٠٥/٤

الأحد ٢٣ كانون الثاني

تذكار القديس الشهيد في الكهنة أكليمنضس، أسقف أنقره، والقديس أغثانجيلُس الشهيد

اللحن الأول

إنجيل السَحَر الأول

فزجَرَهُ المتقدِّمونَ ليسكتَ فازدادَ صراخاً يا ابنَ داودَ ارحمني* فوقف يسوعُ وأمر أنْ يُقدَّم إليهِ* فلمَّا قَرُبَ سألهُ ماذا تريدُ أن أصنعَ لكَ. فقالَ يا ربُّ أن أُبصِرُ* فقال لهُ يسوعُ أَبصِرْ. إيمانُكَ قد خلَّصكَ* وفي الحال أبصرَ وتبعهُ وهو يمجّدُ الله. وجميعُ الشعبِ إذ رأوا سبَّحوا اللهَ.

تأمل

إن كان الرسول بولس الذي حقّق برّ الناموس يحسب نفسه أوّل الخطأة، فمن يستطيع إذاً من الباقين أن يسمّي نفسه صدّيقاً؟

يقول هذا إذاً على الرغم من يقينه بأن حياته ليست دنسة. إلا أنه يرى نفسه كلا شيء أمام برّ الله، لا بل يبرهن أن الأبرار كلّهم خطأة.

«لكنني لأجل هذا رُحمت ليُظهِرَ فيّ يسوعُ المسيح أنا أولاً كلَّ أناةٍ مثالاً للعتيدين أن يؤمنوا به للحياة الأبدية» (١ تيمو ١٦:١).

لاحظ هنا كيف يتواضع ويقلّل من شأن نفسه، ذاكراً سبباً آخر لرحمة الله. لم يقل هنا إنّه رُحم بسبب جهله، بل رُحم لأنه كان خاطئاً مُداناً. هذا لكي لا سيكون، الضابط الكل» وكل الخليقة ستصرخ «مباركٌ الآتي باسم الرب» (متى ٩:٢١) بعد ذلك سيظهر ملك الملوك بقدرة عجيبة ومجد لا يدرك حسب ما بشَّر به يوحنا اللاهوتي القائل: «هوذا يأتي معَ السحابِ وستنظُرُهُ كلُّ عينٍ والذينَ طعنوهُ وينوحُ عليه جميعُ قبائلِ الأرضِ» (رؤ ٧:١).

السؤال الذي يطرحه القديس أفرام هو: إذا كانت السماء والأرض تهربِ من وجه السيد: «ثمَّ رأيتُ عرشاً عظيماً أبيضَ والجالسَ عليه الذي من وجههِ هربَتِ الأرضُ والسماءُ ولم يوجَدْ لهما موضِعٌ» (رؤ ١١:٢٠)، فإلى أين يهرب الإنسان الخاطئ عندما يشاهد السيد جالساً على العرش؟! ماذا سيفعل الإنسان حين يرى طغمات الملائكة التي لا تحصى واقفة برعدة محيطة بالعرش؟! حينئذٍ تتم نبوءة دانيال: «كنتُ أرى أنَّهُ وُضِعَتْ عروشٌ وجلسَ القديمُ الأيَّام. لباسُهُ أبيضٌ كالثلجِ وشَعْرُ رأسِهِ كالصوفِ النَّقيِّ وعرشُهُ لهيبُ نارٍ وبكراتُهُ نارٌ مُتَّقِدَة. نهرُ نارٍ جرى وخرجَ من قدَّامِهِ، ألوفٌ ألوفٍ تَخدُمُهُ وربواتُ ربواتٍ وقوفٌ قدَّامَهُ. فجلسَ الديّان وفُتحت الأسفارُ» (دا ٧: ٩–١٠). إذاً سيعتري كل إنسان خوف عظيم ورعدة ودهش حين يجلس الديَّان الذي لا يحابي الوجوه يقضي بالعدل، وتفتح الكتب الرهيبة التي دوّنت فيها أعمالنا وأقوالنا فيما نظنُ اننا قد خدعنا الله وهو «فاحص القلوب والكلى» (مز ٧: ١٠). وسوف يحاسب كل إنسان على جميع ما قاله وفعله وكأنه لم يتبادر إلى ذهنه يوماً ما هو مكتوب في الإنجيل: «وأمَّا أنتم فحتى شعورُ رؤوسِكم جميعها مُحصاة» (متى ٣٠:١٠).

رُبَّ قائل يقول أن البشريَّة كلّها معلقة بين الملكوت والدينونة، بين الحياة والموت. لكن ما هو المهم الذي سيُسأل عنه الإنسان المؤمن في يوم الدينونة؟! يجيبه القديس أفرام انه سيُسأل عن الإيمان الذي اعترف به وعن عهود معموديته. يسأل قديسنا هل حافظ الإنسان المؤمن على إيمانه وعلى خاتم معموديته بريئاً من الفساد، وعلى لباسه طاهراً؟ لأنه مكتوب في الإنجيل «كُل مَن أُعطِيَ كثيراً يُطلبُ منه كثيرٌ» (لو ٤٨:١٢) و«الكيل الذي بهِ تكيلون يُكالُ لكم» (لو ٣٨:٦). هل حافظ على رفضه الشيطان وكل أعماله وأباطيله؟! هل رفض الزنى والكذب والحسد، السرقة، السحر، الشعوذة، الغضب، السكر، الثرثرة والتكبُّر... ماذا يعني أن أحافظ على معموديتي؟ يعني أن أرفض كل ما يتعلّق بالإنسان القديم وبأعماله وألبس الإنسان الجديد (المسيح) أي كل من يعمل أعمالاً شريرة ويلتصق بالخطيئة تسقط عنه النعمة التي أخذها بالمعمودية. إذاً سنُطالَب جميعنا في ساعة الدينونة بهذه العهود والاعترافات «لأنَّك بكلامِكَ تُدان» (متى ٣٧:١٢) و«مِنْ فَمِكَ أدينُكَ أيها العبدُ الشرير» (لو٢٢:١٩).

من الواضح أن كلماتنا سوف تبرّرنا أو تديننا في تلك الساعة الرهيبة، وأن القديس أفرام يتكلَّم عن هذه الأمور وهو يذرف الدموع لأنه يقول: «ما من أحد يستطيع أن يتكلَّم على الأيام الأخيرة دون دموع» كل ذلك من أجل التوبة التي تغسل خطايانا. لذا يقول القديس: «فالحاجة ماسة إذاً إلى الدموع لغسل إرادتنا قائلين مع داود: تغسلني فأبيض أكثر من الثلج» (مز ٧:٥١) «أعوِّمُ في كلِّ ليلةٍ سريري، بدموعي أبلُّ فراشي» (مز ٦:٦) وأيضاً يقول: «اقترب من الطبيب الصالح ذارفاً الدموع كأفضل الأدوية. لأن الطبيب السماوي هكذا

ييأس من بعده أيُّ خاطئ، بل يتشجّع بالإيمان لأنه هو أيضاً سيحظى بالإحسانات نفسها، ممّا يبرهن عن موقف عظيم للرسول وعن رجاء كبير للخاطئين.

لقد ذكر أنه أوّل الخطأة وأنه «مجدّف ومضطهد ومفترٍ» و«لا يستحق أن يُدعى رسولاً». ولكنه يُظهر هنا تواضعاً أكبر. وللتوضيح نعطي مثلاً:

لنفترض أن هناك مدينة كثيرة السكان، وأن سكانها كلّهم جاهلون، البعض كثيراً والبعض أقلّ، لكنّهم كلّهم مدانون. وهناك واحد منهم أشرّ من الباقين إذ إنه فعل كلّ نوع من أنواع الشرور. إذاً إن قال أحد إنّ الملك غفر للجميع لن يصدّقه الآخرون قبل أن يغفر لمن هو الأشرّ بينهم. هذا ما يزيل كلّ تشكيك في إحسانات غفران الملك.

هذا بالضبط ما يريد أن يقوله الرسول بولس: إن الله عندما أراد أن يؤكّد للناس غفرانه اختار الأكثر خطيئة فيما بينهم. فهو يقول طالما سامحني أنا أوّل الخطأة، فلن يشكّ أحد في أنّ الغفران سرى على الجميع. إن كان الله قد غفر يشاء أن يداوي الإنسان نفسه عن طريق دموعه وهكذا يخلص...».

بعد فحص الأعمال كلها وإعلانها أمام الملائكة والبشر، وخضوع كل الأعداء تحت قدميه، وتحطيم كل سلطة وقدرة وبعد أن تجثو أمام الله كل ركبة سيفصل الراعي الخراف عن الجداء كما ورد في إنجيل متى (٢٥: ٣٢). فالذين عملوا أعمالاً صالحة سيرثون الملكوت وسيُفصلون عن الخطأة الذين لا ثمار لهم. الذين عملوا الصالحات هم الذين حفظوا وصايا الله. هؤلاء هم الرحماء والمحسنون إلى الفقراء، واليتامى، محبو الغرباء وكساة العراة. مفتقدو المساجين، معينو الحزانى، خدّام المرضى، الحزانى اليوم والفرحون غداً، المفتقرون إلى غنى الملكوت. هؤلاء هم المسامحون والحافظون لخاتم الإيمان سالماً. هؤلاء سيقيمهم الرب عن يمينه، أما الأشرار فسيضعهم على يساره لأنهم لم يصغوا إلى صوت الراعي ولم يقبلوا كلامه بل صرفوا كامل العمر في السكر والترف على مثال ذلك الغني الذي لم يرحم الفقير لعازر (لوقا ١٦:١٩-٣١).

الإنسان المسيحي اليوم مدعو إلى التوبة ما دام أمامه وقت مشعلاً مصباح نفسه ومسبّحاً بفمه العريس الذي لا يموت وهو يسمع ذلك الصوت المغبوط، صوت المسيح الرحوم يقول «تعالوا يا مباركي أبي رِثوا الملكوتَ المُعَدَّ لكم منذ تأسيسِ العالمِ» (متى ٢٥:٣٤).

توبوا

«من ذلكَ الزمانِ ابتدأ يسوعُ يكرِزُ ويقولُ توبوا لأَنَّهُ قد اقتربَ ملكوتُ السمواتِ» (متى ٤:١٧).

بهذه الكلمات ابتدأ الرب يسوع بشارته بعدما اعتمد على يد يوحنا المعمدان في الأردن وبعدما جاز التجربة وأثبت أنه ابن الله (متى ٤: ١-١١).

ما يلفت النظر ان القديس يوحنا المعمدان السابق لمجيء الرب والمهيء الطريق لقدومه، قد استعمل نفس الكلمات للدعوة إلى التوبة: «توبوا لأَنَّه قد اقتربَ ملكوتُ السمواتِ» (متى ٣:٢). ويحث يوحنا سامعيه: «اصنعوا أثماراً تليقُ بالتوبةِ» (متى ٣:٨).

هذه الدعوة إلى التوبة ليست جديدة في الكتاب المقدس، بل انها العنصر الأساسي في كلام الأنبياء في العهد القديم. المهم في دعوة الرب يسوع إلى التوبة هو ربطها المباشر باقتراب ملكوت السموات. التوبة هي المفتاح الأساسي الذي يفتح باب الملكوت. لقد تجسد الرب لكي يُعيدنا إلى الملكوت المفقود الذي خسرناه منذ القديم. لقد تجسَّد مبشِّراً بالملكوت السماوي وداعياً إيَّانا إليه. الشرط الأول للدخول هو التوبة المستمرة لا الآنية.

ليست التوبة أن أقول للآخر «اعتذر» عن خطأ ارتكبته، ثم أقوم بما هو أفظع منه في اليوم التالي. ليست التوبة مجرَّد أسف على عمل قمت به، هي أكثر من ذلك. هي اسف واعتذار، وجهاد لتغيير التصرُّف والأعمال. الكلمة اليونانية للتوبة Metania تعني تغيير الذهن والمسار وطريق الحياة. أي أن يبدِّل الإنسان مسار حياته وتصرفاته. يجب أن نستبدل الأعمال الخاطئة بأعمال صالحة. التوبة عودة من الموت إلى الحياة. يقول الرب على لسان النبي حزقيال: «قُلْ لهم: حيٌّ أنا يقولُ السيِّدُ الرَّبُّ. إنّي لا أُسَرُّ بموتِ الشِّريرِ بل بأن يرجعَ الشريرُ عن طريقِهِ ويحيا. ارجعوا ارجعوا عن طُرُقِكُمُ الرديئةِ... وأنتَ يا ابنَ آدمَ فقُلْ لبني شعبِكَ إنَّ بِرَّ البارِّ لا يُنجّيهِ في يومِ معصيَتِهِ،

له فلن يعاقب أحداً آخر. ويُظهر إلى جانب ذلك أنه لا يستحق غفران الله، لكن من أجل خلاص الآخرين اكتسب هو الغفران أوّلاً. فلا يشكّنّ أحد في الخلاص طالما أنا خلصتُ.

لاحظ تواضعه إذ لم يقل ليُظهر «طول أناة»، بل قال ليُظهر «كلَّ طول أناة». وكأنه يقول: لن يكون هناك أحد محتاجاً بعد إلى طول أناة أكثر مني، ولن يكون هناك أيّ خاطئ محتاج إلى رحمة الله الكلّية أكثر مني أنا المحتاج إلى طول أناته الكلّية لا الجزئية كما هي الحال مع الخطأة الآخرين.

«مثالاً للعتيدين أن يؤمنوا به للحياة الأبدية»:

أي من أجل التعزية ومن أجل حثّهم على الإيمان. لقد تكلّم حتى الآن عن الإبن وأن هذا الأخير قد أظهر للناس محبّةً كبيرةً. فحتى لا يُعتقد أن الآب يفتقر إلى هذه المحبّة للبشر، ينسب المجد للآب أيضاً قائلاً:

«ملك الدهور الذي لا يفنى ولا يرى، الإله الحكيم وحده، له الكرامة والمجد إلى دهر الدهور، آمين» (١تيمو ١:١٧).

القديس يوحنا الذهبي الفم

والشريرُ لا يَعثُرُ بشَرِّهِ في يوم رجوعهِ عن شرِّهِ، ولا يستطيعُ البارُّ أن يحيا ببرِّهِ في يوم خطيئته... وإذا قلتُ للشرير موتاً تموتُ فإنْ رَجعَ عن خطيئته وعَمِلَ بالعدلِ والحقِّ، إنْ ردَّ الشريرُ الرَّهنَ وعوَّضَ عن المُغتَصَبِ وسلكَ في فرائضِ الحياةِ بلا عملِ إثمٍ، فإنَّهُ حياةً يحيا. لا يموتُ... عندَ رُجوعِ الشِّرِّيرِ عن شَرِّهِ وعندَ عملِهِ بالعدلِ والحقِّ فإنَّهُ يحيا بهما» (١١:٣٣-١٩). هذا الإعلان عن رغبة الله بعودة الأشرار والخطأة وحثّهم على تغيير حياتهم ترجمها الرسول بولس بقوله إلى تلميذه تيموثاوس: «...لأنَّ هذا حَسَنٌ ومقبولٌ لدى مخلِّصنا اللهِ الذي يريدُ أنَّ جميعَ الناسِ يَخلُصونَ وإلى معرفةِ الحقِّ يُقبلونَ» (١تيمو٢: ٣-٤).

إذاً التوبة تفترض تغييراً جذرياً لنمط حياة الإنسان، كما تفترض ترجمة عمليَّة للحزن الذي غمر قلب الإنسان وللأسف الذي أبداه عقله ولصحوة ضميره ووعيه لما قام به من شر. هذا ما فعله الإبن الشاطر (لو ١٥:١١-٣٢)، إذ بعدما وعى ما اقترفه من خطأ أخذ قراره بالعودة إلى الأحضان الأبوية وقام وعاد، أي ترجم ندمه وحزنه وصحوته فعلاً ملموساً، لذا صار هذا الإبن الشاطر نموذجاً حقيقياً للتوبة، وصارت الكنيسة تقرأ قصته على مسامع المؤمنين قبل الصوم الكبير لتهيّئهم بالتوبة للدخول في جهاد الصوم.

ما نريد أن نؤكد عليه في حديثنا عن التوبة هو ان الله، وكما قرأنا أعلاه مع حزقيال النبي، يصفح عن كل شر الإنسان إن عاد. الخوف ليس من الله، بل من أنفسنا ومن الناس الذين حولنا والذين لا يرحمون. عندما عاد الإبن الضال و«كان لم يَزَلْ بعيداً رآهُ أبوهُ فتحنَّنَ وركضَ ووقعَ على عُنقِهِ وقبَّلَهُ» (لو ١٥:٢٠). الأب هو الذي ركض نحو الإبن وكأنه كان جالساً أمام بيته ينتظر عودة ابنه. لما احتجَّ الإبن البكر الصالح على قبول الأب لإبنه الضال، قال له الوالد: «كان ينبغي أن نفرَحَ ونُسرَّ لأنَّ أخاكَ هذا كان ميّتاً فعاشَ وكان ضالاً فوُجِدَ» (لو ١٥:٣٢).

مَثَلُ الإبن الشاطر يتوِّج مثلين آخرين أوردهما الإنجيلي لوقا قبله مباشرة (لو١٥:١-١٠) وفيهما يجيب الرب يسوع على تذمر الكتبة والفريسيين منه كونه «يقبَلُ خُطاةً ويأكلُ معهم» (لو ١٥:٢). يورد أولاً مَثَلَ الإنسان الذي كان لديه مئة خروف وأضاع واحداً، فترك التسعة والتسعين ومضى يبحث عن الضائع. ثم يورد مَثَلَ المرأة التي اضاعت فلساً فأضاءت القنديل وفتشت عنه إلى أن وجدته. في كلا الحالتين يدعي الجيران للإحتفال لأنه «هكذا يكونُ فرحٌ في السماءِ بخاطئٍ واحدٍ يتوبُ أكثرَ من تِسعةٍ وتِسعينَ باراًّ لا يحتاجونَ إلى توبةٍ... هكذا أقولُ لكم يكونُ فَرَحٌ قُدَّامَ ملائِكةِ اللهِ بخاطئٍ واحدٍ يتوبُ» (لو ١٥: ٧و١٠).

إذاً الله ينتظر عودتنا من الموت الروحي، وهو الموت الحقيقي لا الموت الجسدي. المهم أن نعود قبل فوات الأوان، وأن لا نرقد فجأة قبل التوبة. لنا مثال حيّ عاشه سكان جنوب شرق آسيا منذ أسابيع قليلة، في لحظة واحدة حصد الموج مئات الآلاف من البشر. «لا أحد فوق رأسه خيمة». لذا «اسهروا إذاً لأنّكم لا تعلمونَ في أيَّةِ ساعةٍ يأتي ربُّكم» (متى ٢٤:٤٢).

دعوتنا أن نتهيأً لمواجهة الرب إما في الآخرة عندما يأتي إلينا ولا نعرف متى، أو عند موتنا ولا نعرف أيضاً متى. لذا فلنعدّ أنفسنا لكي نقدّم «جواباً حسناً لدى منبر المسيح المرهوب».

بالامكان الإطلاع على النشرة أسبوعيًا على صفحة الإنترنت:
www.quartos.org.lb